د .محسن محمد حسين

كلية التربية ـ جامعة بغداد – قسم التاريخ

ابن شدّاد في نوادره والايام الاخيرة من حياة صلاح الدين

الحديث عن (ابن شداد)[1] يعني التعريف الى أشهر كاتب يوميات لاعظم قائد عسكري في التاريخ الجهادي الاسلامي ضد الغزاة الطامعين ، إذ يندر العثور على مصدر يؤرخ لأى قائد او خليفة او سلطان يضاهي في قيمته التاريخية قيمة كتاب «سيرة صلاح الدين» او مايسمى «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» ، واليوسفية نسبة الى (يوسف) الاسم الحقيقي للقائد صلاح الدين .

نعم ثمة من كتب عن سيرة احد عظماء التاريخ الاسلامي في مؤلف خاص بذلك ، كما فعل الصولي في «اخبار الراضي والمتقى لله» والمنشئ النسوي في كتابه (سيرة السلطان جلال الدين) سلطان الدولة الخوارزمية الاخير ، وابن قاضي شهبة في (الكواكب الدرية في السيرة النورية) اي في سيرة المجاهد نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى . علماً ان (ابن شداد) لم ينفرد في الكتابة عن يوميات صلاح الدين ومعاركه ، فقد واكبه (العماد الكاتب الاصفهاني) عبر كتابيه (البرق الشامي) و (الفتح القسي في الفتح القدسي) ، وكذلك فعل (الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر ابن شاهنشاه اخو صلاح الدين) في كتابه (مضمار الحقائق وسر الخلائق) و (ابن ابي طي الحلبي) في كتابه «كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين» . ولعلنا لانجافي الحقيقة التاريخية ان قلنا ان عصر صلاح الدين انجب مجموعة من كتاب السير لم ينجبه اي عصر سبقه او اعقبه . بل ان هذه السيرة الناصعة ، وهذه الفترة المتوهجة قد اوحت الى مجموعة من المؤرخين اللاحقين بالكتابة عنها وعن الدولة الايوبية ، عموما ، في مصنفات خاصة بذلك ، كما فعل (ابو شامة) في (كتاب الروضتين في اخبار الدولتين) و (ابن واصل) في كتابه (مفرج الكروب في اخبار بني ايوب) و (الدواداری) في (الدر المطلوب في اخبار ملوك بني ايوب) و (احمد بن ابراهيم الحنبلي) في (شفاء القلوب في مناقب بني ايوب) ، وغيرهم . .

ألا ان ابن شداد يظل ذلك المؤرخ المتفرد في بابه والذي يمتاز بطراوة رواياته من حيث حميميتها وكونها لصيقة بالحدث ، كما يمتاز باسلوبه الخبري الصادق البعيد عن التهويل او الوقوع في اعجاب مفرط بشخص القائد وتقديس البطولة ، كما حصل للمنشئ النسوي في كتابه المذكور ، ولابن الأثير في كتابه (التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية) الذي ارخ فيه تاريخ الاسرة الزنكية في الموصل ، مشيداً بحكمها بافراط شديد ابعده عن الموضوعية والامانة ، مما جعل الدكتور عبدالقادر احمد طليمات ، الذي اختص بالكتابة عن ابن الاثير وعن كتابه هذا ، ان يقول : ان ابن الأثير قد اضطر

الى الانحراف عن الامانة الواجبة في التاريخ حين جامل الاسرة الأتابكية بتلك الصورة .[5] او كما حصل لمحمد ابن تقي الدين عمر المذكور حين كتب باعجاب شديد عن عم والده بطريقة عاطفية منحازة .

والمعروف عن ابن شداد انه ولد ونشأ في الموصل ، ثم انحدر الى بغداد ونزل بالمدرسة النظامية واقام معيداً فيها مدة اربع سنوات ، عاد بعدها الى الموصل وعمره ثلاثين سنة ليدرس في المدرسة الشهرزورية ، وعلت مكانته لما اشتهر به من الحكمة والاتزان في التفكير ، ولهذا عهد اليه الاتابك . بمهمة السفارة الى الخليفة العباسي والى صلاح الدين .[6]

واثناء عودته من الحج سنة 583 هجرية / 1187 ميلادية زار بيت المقدس المحررة حديثا ، فاستدعاه صلاح الدين وعرض عليه البقاء معه ، فوافق ابن شداد على ذلك لأن «الله قد اوقع في قلبي محبته منذ رأيته وحبه للجهاد ، فاحببته لذلك ، وخدمته من تاريخ مستهل جمادي الاولى سنة اربع وثمانين (وخمسمائة) ـ وهو يوم دخوله الساحل (الشامي) ـ . وثم يستطرد مؤرخنا ليقول : وجميع ما حكيته قبل (هذا التاريخ) انما هو روايتي عمن اثق به ممن شاهده ، ومن هذا التاريخ ما اسطر الا ماشاهدته أو اخبرني به من اثق به خبراً يقارب العيان ، والله الموفق .[8]

الا ان هذا الاعجاب وهذه المحبة لم يمنعاه من ان يؤرخ لصلاح الدين بنزاهة تثير الاعجاب ، فكتب بحس سليم وصدق وعلى غاية من الرزانة ، بحيث لاتعثر في كتابه على شئ من «التحيز الشخصي والاغراق في الغلو الشرقي» على حد قول «ستانلي بول»[9] كما نعثر عند اكثر المؤرخين .

تمتاز كتابات ابن شداد باسلوب سهل ، وتعبر عن حرارة اللحظة وتتدفق الفاظه في ايقاعات تتناغم مع ضربات السيف وصهيل الفرس ولهيب المناجيق المتدفق ، ونداءات (الجاووش) وبهاء وجه القائد المنتصر ، لانه كتب بلغة بعيدة عن التكلف والتعقيد والكلام المسجوع ، على عكس ما فعله المؤرخ الكبير العماد الكاتب الاصفهاني ، في كتابيه السالفين ، حيث اكثر من المحسنات اللغوية من تورية وجناس وطباق وتنظير وتضمين في الشعر والنثر ، لهذا كان اسلوب العماد ـ المراسل الحربي في جيش صلاح الدين ـ يتعب القارئ في استخلاص الحقائق التاريخية ، حتى تذمر البعض وعابوا عليه تكلفه في الكتابة .

منذ ان التقى ابن شداد مع صلاح الدين لم يفارق موكبه ، وظل يدون مذكراته بطريقة اليوميات . ولن نتحدث عن هذه اليوميات هنا ، لكننا نبغي ان نلقى ضوءاً على الروايات التي ذكرها خارج سياق تلك اليوميات ، وهي بمثابة انطباعات كونها عنه خلال صحبته للقائد ، او تلك الروايات التي تمتاز باهمية استثنائية ، لتفردها ، ثم بعض الاقوال التي اسرى بها صلاح الدين الى المؤرخ ، لنصل الى الاحداث التي سبقت ابرام المعاهدة التي عقدها صلاح الدين مع ريتشارد قلب الاسد ، قائد الحملة الصليبية الثالثة ، ملك انكلترا (ملك الانكتار حسب ابن شداد) ثم نقرأ انطباعات المؤرخ الشخصية عن الحادث الجلل الذي اودى بحياة هذا المجاهد العظيم .

ابتداء نقول : ان ابن شداد صنف كتابه هذا اثناء حياة صلاح الدين ، وفرغ منه بوفاته ، وكان المؤرخ الوحيد الذي شهد لحظة الوفاة ، وكان بصحبة مستشار صلاح الدين المعروف القاضي الفاضل ، ونقرأ نصاً هاماً يشير الى التاريخ الذي فرغ فيه المؤلف من تصنيف كتابه ، إذ يقول : فرغت من جمعها ، اي جمع مواد الكتاب ، يوم وفاته ـ رحمة الله عليه ـ وقصدت بذلك وجه الله تعالى في حث الناس على الترحم عليه وذكر محاسنه ، والله يحسن خلافته من بعده ، ويجزيه ما هو اهله ، بمحمد واله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .[7] على الرغم من صعوبة التوفيق بين هذا النص وبين اسلوب عرض الكتاب ، إذ لايحتمل ان يكون قد فرغ من التأليف يوم وفاته ، وهو ـ اي المؤرخ ـ يترحم عليه كلما ذكر اسمه بعبارات «رحمه الله . رضى الله عنه . رحمة الله عليه . قدس الله روحه» ، اعتباراً من بداية الكتاب ، الا إذا كانت تلكم العبارات من اضافاته حين اعاد كتابة مواده بالتنسيق المطلوب ، او انها ـ العبارات ـ من اضافات ناسخ الكتاب .

في سياق انطباعاته عن القائد ، والتي استهل بها مصنفه ، كتب عن تدينه وتطبيقه السليم لاركان الاسلام واقامة شعائره من صلاة وزكاة وصوم وحج ، ويتوقف عند الصدقات ليقول ان امواله قد استنفذتها الصدقات ، ومات ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة الا سبعة واربعين درهما وديناراً واحداً ، ولم يخلف ملكاً ولاداراً ولاعقاراً ولابستاناً ولاقرية ولامزرعة ولاشيئا من الاملاك .[9] وعن الحج قال : «انه صمم العزم عليه ، وامر بالتأهب» الا انه أجّله الى العام التالي حيث

توفاه الله .
ثم يتحدث عن كرم اخلاقه وعدالته وسخائه ، ويفرد لها صفحات عديدة ، الى ان يقول بان اكثر الرسائل التي كانت تقدم الى صلاح الدين لطلب المعونة كانت على لساني ويدي «وكنت اخجل من كثرة ما يطلبون ، ولااخجل منه من كثرة ما اطلبه لهم ، لعلمي بعدم مؤاخذته في ذلك ، وماخدمه احد قط الا واغناه عن سؤال غيره» .[9]

ويروي حكايات عن بسالته ويصفه بانه كان من عظماء الشجعان ، قوي النفس شديد البأس عظيم الثبات ، ويتحدث عن ضخامة جيش العدو الصليبي ، ومع هذا فان صلاح الدين «لم يستكثره اصلاً ، ولااستعظم أمرهم قط ، وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبير ، يذكر بين يديه الاقسام «اقسام الجيش» كلها ، ويرتب على كل قسم مقتضاه من غير حدة ولاغضب يعتريه» .

وعن بذله واهتمامه بالجهاد وانفاقه عليه يذكر «لو حلف حالف انه ، اي صلاح الدين ، ما انفق بعد خروجه الى الجهاد ديناراً ولا درهما الا في الجهاد لصدق وبرّ في يمينه» ويضيف قائلا : لقد هجر صلاح الدين في محبة الجهاد اهله واولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه ، وقنع من الدنيا بالسكون (السكن) في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة ، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة عاصفة وصادف ان كان صلاح الدين خارجها ، والا قتلته في الحال» .[10]

ويذكر ان اقرب وسيلة للتقرب منه هي حثه على الجهاد ، او ذكر شئ من اخباره ، ولقد الفت له كتب عدة في الجهاد ، وانا ممن جمع له كتاباً[11] جمعت فيه ادابه ، وكل آية وردت فيه ، وكل حديث رُوي في فضله ، وشرحت غريبها ، وكان ـ رحمه الله ـ كثيرا ما يطالعه حتى اخذه منه ولده الملك الافضل ، عز نصره» .[12] وفي الرواية التالية ينفرد بالتحدث عن مسألة خطيرة تنم عن امنية صلاح الدين في غزو بلاد الافرنج في عقر دارهم خلف البحار في جزائرهم «يقصد في اوربا» حتى يموت اشرف الميتات ـ الموت في سبيل الله ؛ وجاء ذلك في حوار ثنائي بين المؤرخ والقائد ويقول :

«سرنا في خدمته على الساحل طالبين عكا «ساحل فلسطين» وكان الزمان شتاءاً عظيما والبحر هائجا هيجاناً شديداً ، وموجه كالجبال ، وكنت حديث عهد برؤية البحر ، فعظم أمر البحر عندي ... ثم التفت إليّ ـ رحمه الله ـ وقال : اما احكي لك شيئا ؟

قلت : بلى .

قال : في نفسي انه متى ما يسّر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد ، واوصيت وودعت ، وركبت هذا البحر الى جزائرهم ، اتتبعهم فيها حتى لاابقي على وجه الارض من يكفر بالله او اموت» .

فعظم وقع هذا الكلام عندي»[13]

ومن الروايات الفريدة التي ذكرها ، خارج يوميات المعركة ، ان صلاح الدين اراد ان يتنازل عن الوزارة المصرية الى ابيه ، فبعد وفاة عمه (شيركو) وزير الخليفة الفاطمي الاخير (العاضد) لم يجد الخليفة احداً يصلح لهذا المنصب الخطير سوى صلاح الدين ، فما كان من هذا الا و «انفذ في طلب والده ـ في دمشق ـ ليكمل السرور به ويتم الحبور ، ويجمع القصة مشاكلة (على شاكلة) ما جرى للنبي يوسف (حين استدعى والده الى مصر) فوصل والده اليه ، وسلك صلاح الدين معه من الادب ما كان عادته ، والبسه الامر كلّه فابى (الوالد) ان يلبسه ، وقال : «ياولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وانت كفؤ له ، فلاينبغي ان تغيّر موقع السعادة» .[14] وحسنا فعل الوالد الحكيم .

ان يوميات ابن شداد ، تكاد لصدقها ، تصل الى مستوى الوثائق التاريخية ، ومع ذلك فاننا لانبغي ان نسرد تاريخا[15] بالمعنى الدقيق ، انما نحاول ، قدر المستطاع ، ان نتحرى بعض نصوصه الهامة لاظهار انطباعه عن تلك الاحداث ، بادئين من حصار عكا الشهير ووصول ملك انكلترا ، والجو الذي ساد بين الطرفين اثناءفترة المفاوضات ، ثم عقد اتفاقية اوصلح الرملة في 22 شعبان 588 هـ / 2 ايلول 1192 م ، وتنتهي بمرض ووفاة ودفن صلاح الدين .

فمما يذكره ان صلاح الدين كان يتبرك بيوم الجمعة ويتفاءل بنتيجة العمليات العسكرية التي يصادف وقوعها في هذا اليوم المبارك ، ويقول : «اتفقت فتوحات الساحل (الشامي) من جبلة الى سرمانية في ايام الجمع ، وهي علامة قبول دعاء الخطباء المسلمين وسعادة السلطان حيث يسر له الفتوح في اليوم الذي تضاعف فيه ثواب الحسنات» ويختتم كلامه بالقول «وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية ، ولم يتفق مثلها في

التاريخ .[15] .

وهذا الربط بين الانتصارات وبين صلاة يوم الجمعة يعود الى تدينه وايمانه بالله ، وبانه واهب النصر ، وهو منفذه ، ومن أجل هذا ايضا كان يستمر على صومه في رمضان ، ولايفطر رغم قسوة الظروف وضراوة القتال ، ليتضاعف ثوابه ويضمن الانتصار على العدو . فقد ذكر مؤرخنا ضمن حوادث سنة 584 هـ / 1188 م في فتح قلعة (صفد) المنيعة ان صلاح الدين أمر بنصب خمسة مناجيق واستمر العمل الى فجر (سحور) اليوم التالي ، فما كان من المؤرخ الا «ورويت له الحديث المشهور في الصحاح ، وبشرته بمقتضاه وهو قوله «صلعم» :

«عينان لاتمسهما النار ، عين باتت تحرس في سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله» ولم يزل القتال على صفد متواصلاًمع الصوم حتى سلمت بالامان في 14 شوال» .[17] اي ان صلاح الدين ظل صائماً حتى بعد انتهاء رمضان وعيد الفطر . وقد علق العماد الكاتب على هذا قائلاً «وجمعنا بين فضيلتي الصوم والجهاد» .

وعلى الرغم من جو الاقتتال وما يسببه من ضغائن بين الطرفين المتصارعين ، وتصرفات ومواقف بعيدة عن المنطق والتعاطف الانساني ، لاسيما الموقف من الاسرى ، الا ان مؤرخنا يسرد لنا قصصاً تنم على انسانية القائد وتعاطفه حتى مع المقاتلين من افراد العدو حين يقعون في اسر الجند المسلمين . ففي احدى المعارك التي جرت في شوال سنة 586هـ ، انتصر فيها المسلمون ووقع في اسرهم عدد من الصليبيين اتوابهم الى مجلس صلاح الدين فبدأ «يتصفح احوالهم» وكان بين الاسرى مقدم عسكر الافرنسيس وخازن الملك «ريتشارد» ويقول المؤرخ «كنت حاضراً ذلك المجلس ، ولقد اكرم السلطان المقدمين منهم ، وخلع على مقدم عسكر الافرنسيس فروة خاصة ، وأمر لكل واحد من الباقين بفروة خرجية ، فان البرد كان شديداً ... واحضر لهم طعاما اكلوه ، وأمر لهم بخيمة نصبت قريباً من خيمته ، وكان يكارمهم ويحضر المقدم (الاسير) على الخوان «مائدة الطعام» في بعض الاوقات ، واذن لهم ان يراسلوا اصحابهم ، وان يحضروا لهم من معسكرهم ما يحتاجون اليه من الثياب وغيرها ، ثم امر بارسالهم الى دمشق مركز تجميع الاسرى الصليبيين .[18]

وتكرر مثل هذا الموقف في اكثر من مناسبة كالذي حصل مع اسير صليبي طاعن في السن لم يبق في فمه ضرس . احضر امام السلطان مع مترجم فقال السلطان للترجمان : «سله ما الذي حملك على المجئ وانت في هذا السن ؟ وكم من هنا الى بلاده ؟ فقال الاسير : اما بلادي فبيني وبينها مسيرة عدة اشهر ، واما مجيئي فانما كان للحج الى (كنيسة) القيامة . فرق له السلطان ، ومنّ عليه واطلقه واعاده راكباً على فرس الى عسكر العدو . ويضيف المؤرخ قائلا : ولقد طلب اولاد السلطان الصغار أن يأذن لهم في قتل أسير ، فلم يفعل ، فسألته عن سبب المنع ، وكنت حاجبهم فيما طلبوه ، فقال (اي السلطان) : لئلا يعتادوا من الصغر على سفك الدماء ويهون عليهم ذلك ، وهم الآن لايفرقون بين المسلم والكافر» ولايخفى ما في طي ذلك من الرافة والرحمة للمسلمين ـ راف الله به ورحمه .[19]

اثناء حصار الصليبيين لمدينة عكا الساحلية الشهيرة بارض فلسطين ، والذي دام قرابة السنتين وانتهى بسقوطها الفاجع بايدي الغزاة ، وصل ريتشارد قلب الاسد ، وادى هذا الى رجحان كفة العدو وضعف جانب المسلمين ، وقد انعكس هذا على كتابات ابن شداد ، فتحت عنوان «ذكر وصول ملك الانكتار» يقول : لما كان يوم السبت ثالث عشر جمادي الاولى سنة 587 هـ / 1191 م قدم ملك الانكتار الملعون (!) بعد مصالحته لصاحب جزيرة قبرص والاستيلاء عليها ، وكان لقدومه روعة عظيمة ، وصل في خمسة وعشرين شاينا (سفن ضخمة) مملوءة بالرجال والسلاح والعدد ، واظهر الفرنج (الصليبيون القدامى الذين يطوقون بلدة عكا) سروراً عظيماً بقدومه وفرحاً شديداً ، حتى انهم اوقدوا تلك الليلة نيراناً عظيمة في خيامهم فرحاً به ، ولقد كانت هذه النيران مهولة عظيمة ، وتدل على نجدة عظيمة كثيرة ، وكان ملوكهم يتواعدونا به ، وكان المستأمنون (الصليبيون الذي تركوا جماعتهم ولجأوا الى المسلمين) يخبرون عنهم انهم «أي الصليبيون المحاصرون لعكا» متوقفون بما يريدون يفعلونه من مضايقة البلد الى حين قدومه ، فانه (اي ريتشارد) ذو رأي في الحرب مجرب ، واثر قدومه في قلوب المسلمين خشية ورهبة ، هذا والسلطان يتلقى ذلك كله بالصبر والاحتساب والاتكال على الله تعالى» .[20]

وفي كتاباته يعكس ابن شداد الحاح الملك الانكليزي على اجراء المفاوضات بين الطرفين ، وتهيأة الجو المطلوب للحصول على ثقة صلاح الدين ، ليستطيع هو في النهاية العودة الى

انكلترا ، وكان (ريتشارد) يحاول جس نبض السلطان لدى مفاوضته الملك العادل (سيف الدين ابي بكر اخي صلاح الدين) . الا أن رد صلاح الدين يظهر موقفه المبدأي من المطاليب التي عرضها عليه الملك والتي تتعلق بمصير مدينة القدس وصليب الصلبوت (الذي صلب عليه السيد المسيح ، وكان في حوزة المسلمين) واخيرا مصير الاراضي العربية الاسلامية المحتلة . ففي احدى المرات كتب (الملك) رقعة بعث بها الى سلطان المسلمين وكتب فيها : ان المسلمين والفرنج (الصليبيين) قد هلكوا وخربت البلاد ، وخرجت من يد الفريقين ، وقد اتلفت الاموال والارواح من الطائفتين ، وقد أخذ هذا الامر حقه ، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد ، والقدس - حسب زعمه - فمتعبدنا ما ننزل عنه ، ولو لم يبق منا واحد ، واما البلاد فيعاد الينا منها ما هو قاطع الاردن ، واما الصليب فهو خشبة لامقدار (لاقيمة) له عندكم ، وهو عندنا عظيم ، فيمنّ به «يهبه» السلطان علينا ، ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم» . ولما وقف السلطان - رحمة الله عليه - في جواب ذلك ان قال : «القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا اعظم مما هو عندكم ، فانه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة ، فلايتصور ان ننزل عنه ولانقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين ، واما البلاد فهي ايضا لنا في الاصل ، واستيلاؤكم كان طارئا عليها ، لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت ، وما اقدركم الله على عمارة حجر منها ما دام الحرب قائماً (مادامت الحرب قائمة) .. واما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة ، ولايجوز لنا ان نفرط فيها الا لمصلحة راجعة الى الاسلام هي اوفى منها» وسار هذا الجواب اليه مع الواصل منه .»[21]

ان هذا الجواب المفحم يبين مرة والى الابد موقف قائد المسلمين الثابت من المسائل التي اراد الصليبيون التفاوض بشأنها ، ظانين ان ضخ الاعداد الهائلة من قواتهم نحو المشرق الاسلامي سيؤثر على الموقف التفاوضي للقائد . إلا ان هذا لم يحصل ، وبالتالي لم يتغير موقف القيادة الصليبية في طلب التفاوض ، بل ظل هؤلاء يلحون عليه ، فما كان من ريتشارد الا الاستمرار على طلب الفواكه والثلج ، ولم يشأ صلاح الدين ان يرفض الطلب ، وفضل الابقاء على «شعرة معاوية» ويستفيد من هذا الحوار مع العدو للاطلاع على اسرارهم العسكرية ، كما جاء في مذكرات مؤرخنا إذ يقول :

«هذا ورسل الانكتار لاتنقطع في طلب الفواكه والثلج، واوقع الله عليه في مرضه شهوة الكمثرى والخوخ ، وكان السلطان يمده بذلك ، ويقصد كشف الاخبار بتواتر الرسل» .[22]

ومن الاخبار الطريفة النادرة التي ذكرها ابن شداد تطرقه الى مشروع اقامة دولة اتحادية اسلامية صليبية يكون مركزها القدس ، وقوامها عقد قران الملك العادل سيف الدين أخي صلاح الدين من اخت ريتشارد التي «استصحبها معه من صقلية ، وكانت زوجة صاحبها وقد مات ، فاخذها اخوها لما اجتاز بصقلية ، فاستقرت القاعدة على ان يتزوجها الملك العادل ، وان مستقر «مركز» ملكها يكون بالقدس الشريف ، وان اخاها يعطيها بلاد الساحل التي في يده من عكا الى يافا وعسقلان وغير ذلك ويجعلها ملكة الساحل ، وان السلطان يعطي الملك العادل جميع ما في يده من بلاد الساحل ويجعله ملك الساحل ، ويكون ذلك مضافا الى ما في يده من البلاد والاقطاع وانه يسلم اليه صليب الصلبوت .... واسرانا يفك اسرهم وكذا اساراهم ، وان الصلح يستقر على هذه القاعدة ويرحل ملك الانكتار طالبا بلاده في البحر وينفصل الأمر» وقد وافق الملك العادل على هذا المشروع ، وانتدب المؤرخ نفسه ليكون المتكلم ويعرض الفكرة على صلاح الدين ويتلو الرسالة عليه «فبادر السلطان الى الرضا بهذه القاعدة معتقدا ان الملك الانكتار لايوافق على ذلك اصلا ، وان هذا منه هزو ومكر ، فكررت عليه الرضى بذلك ثلاث مرات ... فلما تحققنا ذلك منه عدنا الى الملك العادل فعرفناه ما قال ... واستقرت القاعدة عليه»[23]

ولكن سرعان ما فشل المشروع حين عرض على الملكة الارمل «فتسخطت من ذلك وغضبت بسببه ، وانكرت ذلك انكاراً عظيما ، وحلفت بدينها المغلظ من يمينها انها لاتفعل ذلك ، وكيف تمكن مسلما من غشيانها . ثم قال اخوها (الانكتار) : ان كان الملك العادل يتنصر فانا اتمم ذلك ، وان رضيت فأنا افعل ذلك . وترك باب الكلام مفتوحا ، فكتب الملك العادل الى السلطان - رح - وعرفه ذلك .»[24]

بقي حديث الصلح مستمرا ، وكان الرسل تتواصل في تقرير قواعد الصلح . واصل القاعدة ، كما يذكره مؤرخنا ، ان الملك قد بذل اخته للملك العادل بطريق التزويج ، وان تكون البلاد الساحلية الاسلامية والفرنجية لهما . فاما الفرنجية فلها

من جانب اخيها ، والاسلامية للملك العادل من جانب السلطان ، وكان آخر الرسائل من الملك في المعنى ان قال :

«ان معاشر دين النصرانية انكروا عليّ وضع اختي تحت مسلم بدون مشورة البابا ، وهو كبير دين النصرانية ومقدمه ، وها انا اسير اليه رسولاً يعود في اشهر ، فان اذن فبها ، ونعمت ، والا زوجك ابنة اختي ، وما احتاج في اذنه في ذلك» ثم يضيف المؤرخ : هذا كله وسوق الحرب قائم والقتال عليهم ضربة لازب .

ولكن ، وتحت ضغط الاحداث ، وبسبب الوهن الذي صار يستشعر به اضطر الى قبول مبدأ المصالحة ، ويقول المؤرخ : رأى السلطان ذلك مصلحة لما غشي الناس من الضعف ، وقلة النفقات ، والشوق ـ شوق المحاربين ـ الى الاوطان ، ولما شاهده من تقاعدهم على يافا يوم امرهم بالحملة ، فلم يحملوا ، فخاف ان يحتاج اليهم فلا يجدهم ، فرأى ان يجمهم مدة حتى يستريحوا وينسوا هذه الحالة التي صاروا اليها ، ويعمر البلاد ، ويشحن «يسلح» القدس بما يقدر عليه من الاسلحة ويتفرغ لعمارته .

ثم يتحدث عن بنود الصلح (صلح الرملة) وامده . ويعكس حالة السرور التي انتابت الناس من الطرفين . ولكن يرجع المؤرخ ليؤكد ـ للناس وللتاريخ ـ ان رأى السلطان ـ رغم ما حصل ـ لم يكن مع عقد الصلح ويقول : «والله العليم ان الصلح لم يكن من ايثاره ، فانه قال لي في بعض محاوراته في الصلح :

«اخاف ان اصالح وما ادري اي شئ يكون مني ، فيقوى هذا العدو ، وقد بقى لهم هذه البلاد ، فيخرجوا لاستعادة بقية بلادهم (بلادهم : هكذا كانت تسمى الاراضي المحتلة التي استقر عليها الصليبيون يومئذ) وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة (يقصد قواد جيشه وامرائه الاقطاعيين) قد قعد في رأس تله ـ يغني حصنه» .

وقال (صلاح الدين) : «لا انزل ، ويهلك المسلمون» فهذا كلامه ـ على حد تعبير المؤرخ الحرفي ـ وكان كما قال ، لكنه رأى المصلحة في الصلح لسآمة العسكر ، ومجاهرتهم بالمخالفة ، وكان مصلحة في علم الله تعالى ، فانه اتفقت وفاته (وفاة صلاح الدين) بعيد الصلح ، فلو كان اتفق ذلك في اثناء الوقعات ـ المعارك ـ لكان الاسلام على خطر ، فما كان الصلح الا توفيقاً وسعادة له ، رحمة الله عليه» .

وضمن مدوناته يورد ابن شداد عبارات على هيئة نصوص منسوبة الى صلاح الدين ، لها قيمتها التاريخية الكبيرة ، ولكننا نرجح ان تكون هذه النصوص من صياغة المؤرخ وليست من اقوال السلطان حرفيا . من هذه النصوص نص اورده في حضرة المؤرخ يوصي فيه ابنه ، الملك الظاهر شهاب الدين غازي صاحب حلب ، في اواخر ايامه حين جاء يودعه ، وهو بمثابة توجيه في كيفية ادارة وحكم البلاد ، قائلا :

«اوصيك بتقوى الله تعالى ، فانها رأس كل خير . وآمرك بما امرك الله به ، فانه سبب نجاتك . واحذرك من الدماء ، والدخول فيها والتقلد لها ، فان الدم لاينام ، واوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في احوالهم ، فانت اميني وامين الله عليهم ، واوصيك بحفظ قلوب الامراء وارباب الدولة واكابرها ، فما بلغت ما بلغت الا بمداراة الناس . ولاتحقد على أحد ، فان الموت لايبقي احداً ، واحذر ما بينك وبين الناس فانه لايغفر الابرضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك اليه فانه كريم» بعد هذه الوصية القيمة يردف المؤرخ قائلاً : ولم يزل الملك الظاهر بين يدي والده الى قريب السحر ، ثم اذن له صلاح الدين بالانصراف ، ونهض له وودعه ، وقبل وجهه ومسح يده على رأسه ، ثم نام ـ الظاهر ـ في برج الخشب الذي للسلطان ، يجلس عنده في الاحيان الى بكرة ، وسرتُ ـ كما يقول المؤرخ ـ في خدمته الى بعض الطريق وودعته ..

ويكتب بيراع المؤرخ الامين بدقة متناهية تحركات صلاح الدين حين توجه من القدس ليستقر اخيراً في دمشق حيث توفى فيها فيما بعد ، فتحت عنوان : «ذكر مسير السلطان من القدس» يقول : اقام السلطان بقطع الناس (يمنحهم اقطاعات) ويعطيهم دستوراً (اجازة) ويتأهب للمسير الى الديار المصرية ، وانقطع شوقه الى الحج ، وكان من اكبر المصالح التي فاتته (لأنه لم يحج) ، ولم يزل كذلك حتى صح عنده اقلاع مركب الانكتار المخذول ، متوجهاً الى بلاده مستهل شوال ، عند ذلك حرر السلطان عزمه على ان يدخل الساحل جريدة (جريدة ـ حملة) ويتفقد القلاع البحرية الى بانياس (بانياس : غير البلده الساحلية السورية المعروفة ، انما هي بلدة صغيرة في فلسطين) ويدخل محروسة دمشق ، ويقيم بها اياما قلائل ، ويعود الى القدس الشريف ، سائراً الى الديار المصرية ، لتفقد احوالها ، وتقرير قواعدها والنظر في مصالحها ، وامرني بالمقام بالقدس

الشريف الى حين عوده ، لعمارة بامارستان (مستشفى) انشأه فيه ، وادارة المدرسة التي انشأها فيه ـ رحمة الله عليه ـ الى حين عوده ، وسار من القدس ضاحي نهار الخميس سادس شوال سنة ثمان وثمانين .»[29]

(لاحظ هذه الدقة في توقيت الحوادث) .

الايام الاخيرة من حياة صلاح الدين في دمشق

دخل دمشق في 26 شوال عام 588 هـ ، وكان فيها اولاده الملك الافضل (نور الدين علي) والملك الظاهر (شهاب الدين غازي) والملك الظافر خضر واولاده الصغار «وكان صلاح الدين يحب البلد ويؤثر الاقامة فيه على سائر البلاد ، وجلس للناس في بكرة الخميس 27 منه ، وحضر الناس عنده ، وبلوا شوقهم من رؤيته ـ رحمة الله عليه ـ وانشده الشعراء ، وعم ذلك المجلس الخاص والعام ، واقام ينشر جناح عدله ، ويهطل سحاب انعامه وفضله ويكشف مظالم الرعايا في الاوقات المعتادة» ... واقام الملك الظاهر «حتى يتملى بالنظر اليه ، وكأن نفسه الشريفة كانت احست بدنو اجل السلطان ..»[30]

ومن النوادر التي يذكرها ابن شداد عن صلاح الدين قبل مرضه الاخير ، ما يرويه عن الكزاغند (الكزاغند : ثوب مبطن بالحرير يلبس ايام القتال ، وكان يشبه المعطف القصير) الذي لم يكن السلطان يتخلى عن لبسه ، ولايركب فرسه بدونه . فبعد ان يتحدث عن الكسل الذي اصابه في شتاء 589 هـ / 1193 م ذي الوحل الكثير ، حيث خرج للقاء الحجاج صحبة ولده الملك الافضل ومعه المؤرخ ، يقول هذا : اخذني الملك الافضل يحدثني ، فنظرت الى السلطان ـ رحمه الله ـ فلم اجد عليه كزاغنده ، وما كان له عادة يركب بدونه . وكان يوماً عظيماً قد اجتمع فيه للقاء الحاج ، والتفرج على السلطان ، معظم من في البلد ، فلم أجد الصبر دون ان سرت الى جانبه وحدثته في اهمال هذا ، فكأنه استيقظ ، فطلب الكزاغند ، فلم يوجد الزردكش ، فوجدت لذلك امراً عظيماً وقلت في نفسي «سلطانٌ يطلب ما لابد في عادته ولايجده ... و ... الله في قلبي تطيراً بذلك .»[31]

ثم مرض ، رحمه الله

وكان المؤرخ ومعه القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني ، حاضرا ، فيتحدث عن الكسل الذي انتاب جسمه ، ثم غشيته حمى صفراوية في منتصف الليل ، وكانت (الحمى) في باطنه اكثر منها في ظاهره ، حسب تعبيره «وحضرت عنده انا والقاضي الفاضل ، ودخل ولده البكر (الملك الافضل) وطال جلوسنا عنده ، واخذ يشكو من قلقه بالليل ، وطاب له الحديث الى قريب الظهر ، ثم انصرفنا والقلوب عنده» وخرجوا لتناول شئ من الطعام وجلس الملك الافضل في موضع والده ، فتطاير الناس !

«ثم اخذ المرض في تزايد من حينئذ ، وكنا ندخل اليه انا والقاضي الفاضل في النهار مراراً ... وكان مرضه في رأسه ـ رحمة الله عليه .. ومن امارات «علاقات» انتهاء العمر غيبة طبيبه الذي كان قد الف مزاجه سفراً وحضرا ، ورأى الاطباء فصده ، ففصدوه في اليوم الرابع فاشتد مرضه ، وقلت رطوبات بدنه ، وكان يغلبه اليبس غلبة عظيمة ، ولم يزل المرض في تزايد حتى انتهى الى غاية الضعف ، وقد اجلسناه في اليوم السادس من مرضه واسندنا ظهره الى مخدة» وللتخفيف من وطأة المرض الشديدة اعطي ملياً بشربة مع الماء الفاتر وحين شربه «وجده شديد الحرارة ، فطلب تغييره ، وجلبوا له ماء بارداً «فشكى من برده ، ولم يغضب ولم يصخب ـ رحمة الله عليه ـ ولم يقل سوى : سبحان الله لايمكن لأحد تعديل الماء . وخرج المؤرخ والقاضي الفاضل الذي علق على تقديم الماء بالطريقة المذكورة . قائلا للمؤرخ : ابصر هذه الاخلاق التي قد اشرف المسلمون على مفارقتها ، والله لو ان هذا بعض الناس كان قد ضرب بالقدح رأس م احضره .

اشتد مرضه في اليوم السابع والثامن وتغيب ذهنه ، وفي اليوم التاسع حصلت له رعشة ، وامتنع من تناول المشروب . ثم يتحدث ابن شداد عن وضع الناس في البلد اثر سماعهم نبأ تروي صحة القائد ويقول : «اشتد الرجف في البلد ، وخاف الناس ، ونقلوا الاقمشة من الاسواق ، وغشى الناس من الكآبة والحزن مالايمكن حكايته» . ويضيف قائلا : ولقد كنت انا والقاضي الفاضل نقعد في كل ليلة الى ان يمضي من الليل ثلثه او قريب منه ، ثم نحضر في باب الدار ، فان وجدنا طريقاً دخلنا على السلطان وشاهدناه وتعرفنا على احواله وانصرفنا . وكنا نجد الناس يرتقبون خروجنا الى بيتنا حتى يقرأون احواله من صفحات وجوهنا .

يستمر المؤرخ المدقق على وصف حال سلطان المسلمين ويقول : في اليوم العاشر حقن دفعتين ، وقدم له مقدار من ماء الشعير ، فتحسنت صحته ، وفرح الناس فرحاً شديداً ، فاقمنا

على العادة الى أن مضى من الليل هزيع ، ثم اتينا باب الدار فوجدنا (جمال الدولة ـ يبدو انه كان طبيباً) مقبلا ، فالتمسنا منه تعريف الحال المتجددة ، فدخل ثم انفذ الينا مع الملك المعظم تورانشاه يقول : «ان العرق قد اخذ في ساقيه ، فشكرنا الله تعالى على ذلك ، والتمسنا منه ان يمس بقية بدنه ، ويخبرنا بحاله في العرق ، فافتقده ثم خرج الينا ، وذكر ان العرق سابغ (كثير) فشكرنا الله تعالى على ذلك ، وانصرفنا طيبة قلوبنا» وفي اليوم الحادي عشر من مرضه المصادف 26 من صفر حضرنا بالباب ، وسألنا عن الاحوال ، فاخبرنا ان العرق افرط حتى نفذ في الفرش ثم في الحصر ، وتأثرت به الارض، وان اليبس قد تزايد تزايداً عظيماً، وخارت قواه، واحتار معه الاطباء(32) .

وحين رأى الملك الافضل ما حل بوالده وايس من شفائه، جلس في دار رضوان، وبدأ بتحليف امراء والده، للتاكد من بقائهم على ولائهم لحكم اولاد السلطان، واستحضر القضاة، وطلب أن يكتب له نسخة يمين مختصرة، تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته(!) وله «للملك الافضل» بعد وفاته ، واعتذر للناس بان المرض قد اشتد ، وما نعلم ما يكون ، وما نفعل الا احتياطا على جاري عادة الملوك . ويذكر ابن شداد اسماء الامراء الاقطاعيين وغيرهم الذين اقسموا يمين الاخلاص . اما فحوى القسم ، او مايسميه المؤرخ «نسخة اليمين المحلوف بها وفصولها» فهي :

«انني مِنْ وقتي هذا قد اصفيت نيتى ، واخلصت طويتي للملك الناصر مدة حياته ، وانني لاأزال باذلا جهدي في الذب عن دولته بنفسي ومالي وسيفي ورجالي ، ممتثلا امره ، واقفا عند مراضيه ، ثم من بعده لولده الملك الافضل علي . ووالله اننى في طاعته ، واذبّ عن دولته وبلاده بنفسي ومالي وسيفي ورجالي ، وامتثل امره ونهيه ، وباطني وظاهري في ذلك سواء ، والله على ما اقوله وكيل»(33)

ومن نوادر حوادث وفيات عظماء التاريخ حين يحضر لخظتها أحد المؤرخين الكبار ، او كاتب سيرته ، وهذا ما حصل في وفاة صلاح الدين . فتحت عنوان «ذكر وفاته ، رحمة الله عليه ، وقدس الله روحه واحسن خلفه للمسلمين» يتحدث عن الوضع النفسي الذي كان يعيش فيه الناس من سكان دمشق ، حتى ان المؤرخ والقاضي الفاضل رأيا ان من الصواب ان لايبيتا عند صلاح الدين في القلعة ، رغم تدهور وضعه، لأن بقاءهم سيفسر . بموته ، فكان الناس يراقبون نزولهما كل ليلة ، وعندها سيقع الشغب وتحدث اعمال النهب (!)

ففي الليلة الثانية عشرة من المرض (27 صفر 589 هـ) اشتد مرضه ، وضعفت قوته ، وحال تجمع النسوة في باب الدار دون وصولهما الابشق الانفس ، ويقول ابن شداد : عرض علينا الملك الافضل ان نبيت عنده ، فلم ير القاضي ذلك رأيا (صائبا) فان الناس كانوا في كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة ، فخاف ان لاينـزل فيقع الصوت في البلد ، وربما نهب البلد بعضهم بعضا ، فرأى المصلحة في نزولنا، فنزلا . فكلفوا رجلا صالحا آخر هو الشيخ «ابو جعفر امام جامع الكلاسة المعروف بدمشق» ليبيت في القلعة وليقرأ عليه القرآن ، ويذكر بالشهادة اثناء احتضاره ، وبات ـ السلطان ـ تلك الليلة على حال المنتقلين الى رحمة الله تعالى ، وكان ذهنه غائبا لايكاد يفيق إلا في الاحيان . يقول المؤرخ على لسان الشيخ ابي جعفر المذكور انه لما انتهى الى قوله تعالى : «هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة» سمعه وهو يقول «صحيح» وهذه يقظة في وقت الحاجة ، وعناية من الله تعالى به ، فلله الحمد على ذلك .

ثم .. ثم توفي صلاح الدين بعد صلاة الصبح فبادر القاضي الفاضل بالحضور ، ووصل ابن شداد ليصف يوم الحزن الكبير وليقول : لم يصب المسلمون والاسلام بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون ، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالا يعلمها الا الله تعالى . وبالله كنت اسمع من بعض الناس انهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم ، وما سمعت هذا الحديث الا على ضرب من التجوز والترخص الى ذلك اليوم ، فاني علمت من نفسي ومن غيري انه لو قبل الفداء لفدي بالنفس»

وينتقل المؤرخ ليصف مجلس الفاتحة الذي نصب في القلعة ويقول : جلس ولده الملك الافضل للعزاء في الايوان الشمالي ، وحفظ باب القلعة الا عند الخواص من الامراء والمعممين ، وكان يوما عظيما قد شغل كل انسان ما عنده من الحزن والاسف والبكاء والاستغاثة عن ان ينظر الى غيره ، وحفظ المجلس عن ان ينشد فيه شاعر او يتكلم فيه فاضل او واعظ. وكان اولاده يخرجون مستغيثين بين الناس، فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم، ودام الحال على ذلك الى ما بعد صلاة الظهر، ثم يتحدث عن مراسيم الغسل والتكفين والصلاة

عليه والمشرفين عليها، وكذلك عن التشييع حين ارتفعت الاصوات بالبكاء والعويل عند مشاهدة النعش وعظم الضجيج «حتى ان العاقل يتخيل ان الدنيا كلها تصيح صوتا واحدا ، وغشى الناس من البكاء والعويل مما شغلهم عن الصلاة ، وصلى عليه الناس ارسالا .... ثم اعيد الدار التي في البستان ... ودفن في الصفة الغربية منها ... وكان الناس قد شغلهم البكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد ، فما يوجد قلب الا خرين ، ولاعين الا باكية ، ثم رجع الناس الى بيوتهم اقبح رجوع ، ولم يعد منهم احد في تلك الليلة ، الا انا حضرنا ، وقرأنا ، وجددنا حالا من الحزن .

اما الملك الافضل فرأى ضرورة مكاتبة عمه الملك العادل ، ومكاتبة اخوته ليخبرهم بالحادث الجلل ، وفي اليوم الثاني جلس للعزاء ، واطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء ، وتكلم المتكلمون، ولم ينشد شاعر ... واستمر الحال في حضور وجوه البلد بكرة وعشية لقراءة القرآن .

ويختتم ابن شداد هذا الوصف المسهب ببيت شعر يعبر عن الاسى لانقضاء ايام الالق والفخر والانتصارات المتتابعة ، ايام الناصر صلاح الدين القائد العظيم :

«ثم انقضت تلك السنون واهلها

فكأنا وكأنهم احلام»

ويعلى انه فرغ من كتابه هذا «يوم وفاته ـ رحمة الله عليه ـ وقصدت بذلك وجه الله تعالى في حث الناس على الترحم عليه ، وذكر محاسنه ، والله يحسن خلافته من بعده ، ويجزيه ما هو أهله ، بمحمد وآله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل»[34] .

الهوامش

1) بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم (ابن شداد) .
ولد بالموصل سنة 539 هـ / 1145 م وتوفي بحلب سنة 632 هـ / 1235 .

2) اعتمدنا على الطبعة الاولى (الدار المصرية للتأليف والترجمة . القاهرة 1964 . تحقيق د. جمال الدين الشيال .

3) د. عبدالقادر طليمات ، كتاب (ابن الأثير الجزري المؤرخ) طبعة دار الكتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة 1969 .

4) النوادر ص : 65 . 70 . 85 .

5) كتابه ص : 87 .

6) Stanly Lane — Poole , Saladin

7) كتابه ص : 247 .

8) كتابه ص : 8 .

9) ص : 18 .

10) ص : 21 .

11) يقصد ابن شداد مصنفه الموسوم (فضائل الجهاد) الذي اشار اليه (ابن خلكان) ، والمخطوط بمكتبة كوبر يللي باستانبول تحت رقم 764 .

12) كتابه ص : 21 .

13) ص : 22—23 .

14) ص : 44 .

15) فمن الامور الهامة التي لانتحدث عنها في هذا الصدد تلك الرسائل التي تصل الى مستوى الوثائق والتي يتضمنها الكتاب ، من بينها الخطابات المرسلة من كل من الكاغيكوس كبير الارمن ، وامبراطور بيزنطة الى صلاح الدين ، والسفارة التي بعثها الى القسطنطينية حول كيفية اقامة الخطبة في المسجد المقام في عاصمة الدولة البيزنطية .

اضافة الى ان الكتاب ينفرد بالحديث والوصف لكثير من الاوضاع الخاصة بادارة شؤون الحرب والاوضاع الاجتماعية والادارية في الجانبين الصليبي والاسلامي منها مثلا :

(1) ان المسلمين الخاضعين للادارة الصليبية المحتلة كانوا يرجعون في خصوماتهم الى قاض منهم .

(2) نص يدل على ان بعض الامراء الصليبيين صاروا يعرفون اللغة العربية ويطلعون على شئ من التاريخ العربي الاسلامي .

(3) وصف لبعض احكام الشرع عند جنود ملك الالمان :

(4) وصف نادر لعلم الصليبيين الموحد «حزقته بياض ملمع بحمرة على شكل صلبان» . إلخ . انظر مقدمة الكتاب ص (12) للمحقق .

16) كتابه ص : 92 .

17) ص : 95 .

18) ص : 151 .

19) ص : 156 .

20) ص : 161 .

21) ص : 194 .

22) ص : 231 .

23) ص : 196 .

24) نفس الصفحة .

25) ص : 204 .

26) ص : 233 .

27) ص : 235 .

28) ص : 238 .

29) ص : 239 .

30) ص : 241 .

31) ص : 242—243 .

(32) النوادر ص : 244

(33) ص : 245

(34) ص : 247